عبر البشر

فى أعيان القرن الثالث عشر

تأليف محمد عارف باشا — عضو مجلس الأحكام بمصر
فى عهد محمد على الكبير

حظى القرن التاسع عشر فى مصر بميلاد النهضة الفكرية الحديثة . وهذه النهضة التى تفتحت أزهارها الأولى على ضفاف الوادى قامت بفضل آلة الطباعة التى لعبت دوراً رئيسياً فى هذا المضمار . فقد استعان بها محمد على — إلى أقصى مدى — لغرس بذور العلم والمعارف فى الحقل المصرى الخام ، فيسّرت له مارام من نشر الثقافة فى طول البلاد وعرضها . وحديث المؤرخين عن المعاهد والمدارس التى افتتحت فى عهده حديث معروف !

فنى أيام هذا العاهل أنشئت عدة مطابع ، منها المطبعة الأميرية (١٨٢٠) ومطبعة أبو زعبل ، ومطبعة الجهادية ، ومطبعة رأس التين وغيرها لطبع الكتب الدراسية ، إلا أنها ما لبثت أن نهضت — مع مرور الزمن — بطبع أمهات كتب الدين والتاريخ والجغرافيا باللغتين العربية والتركية ، مثال ذلك :

تاريخ بونابرته ، تاريخ إيطاليا ، تاريخ روسيا ، رحلة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، ألف ليلة وليلة ، شرح الألفية لابن عقيل ، عدة قواميس ومعاجم ، وكثير من مؤلفات الطب والهندسة والفنون العسكرية . . . إلخ .

وقد ازدهرت النهضة الفكرية فى جو مصرى بحت على عهد الخديو إسماعيل فاهتم بالتعليم فى كل مرافقه ، وأنشئت المدارس العالية ، وأصلح الأزهر ، وأرسلت البعثات إلى الخارج ، وكوفحت الأمية . وإلى جانب هذا شجع الخديو التنقيب عن الآثار والعناية بحفظها ، وأمر بتنظيم دار الكتب ، وأنشأ الجمعية الجغرافية . وأهم من كل ذلك أمر بتعميم استعمال اللغة العربية بعد أن كانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى البلاد !

وفى عهده أنشئت جمعية المعارف (١٨٦٨) وبدأت تنهض بنشر التراث الإسلامى بين المشتغلين بالبحث والمتطلعين إلى الثقافة ، فنشرت عدة مؤلفات بفضل آلة الطباعة . وسنذكر بعضها فى مكانها المناسب من هذا المقال .

وكان محمد عارف باشا هو المحرك النشيط لتلك الحركة الثقافية المباركة ، إلى جانب اضطلاعه بكتابة موسوعته الخاصة بأعلام مصر فى عهد الأسرة المحمدية العلوية خلال القرن التاسع عشر .

نطالع ترجمة حياة محمد عارف فى المجلد الثالث (ص ٢٧٤) من السجل العثمانى كما يلى : محمد عارف الدرامه لى : ذهب إلى مصر سنة ١٢٤١ هـ ، (١٨٢٥ — ٢٦) ، وحاز رتبة أمير اللواء أول مراتب الباشوية ، وولى مديرية البحيرة ، وتنقل فى وظائف عدة ، وعين عضواً فى مجلس الأحكام (الشورى) بمصر ، وسكرتيراً فى المجلس المذكور إلى سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ — ٥٤) وكان شاعراً . ولم يزد صاحب السجل على ذلك مكتفياً بأن قال : ثم مات !

ونقول : إن «عارف باشا» هذا من أسرة كبيرة فى درامه لى فيها باشوات كثيرون ، وكان لمحمد على الكبير صلة قوية بتلك الأسرة حتى إنه شفع لدى السلطان فى حق المنفيين من أفرادها إلى جهة « طونة » ، فصدر الأمر السلطانى بالعفو عنهم وإعادتهم إلى وطنهم . ومن هذه الأسرة محمود ثابت وعلاء الدين وراشد الذين نجد تراجمهم جميعاً فى السجل العثمانى .

على أن الناحية الهامة فى شخصية عارف باشا أنه كان فى طليعة الناهضين بالحركة الفكرية على أيام خلفاء محمد على ، فقد اضطلع بأعباء جميعة المعارف التى أسست فى عهد الخديو إسماعيل تحت رعاية ولى عهده محمد توفيق وكان ذلك فى عام ١٨٦٩ . والجدير بالذكر أنها كانت شركة مساهمة ذات ثلاثين ألف سهم تهدف إلى طبع ونشر الكتب العربية النافعة .

قامت هذه الجمعية بطبع كتب كثيرة فى فترة وجيزة سنأتى على ذكرها فيما بعد ، وقد ظلت تؤدى رسالتها إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل والأمير عبد الحليم لتنافسهما على عرش الخديوية . وكان عارف باشا من أنصار عبد الحليم ، فهاجر إلى الأستانة وانحلت الجمعية . وكان ذلك فى حوالى عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) وهاجر ابنه فى العام التالى إلى استانبول .

ويذكر عارف باشا على هامش نسخة له من كتاب « خلاصة الأثر من أعيان

القرن الحادى عشر» بخط يده أنه تقابل مع الخديو إسماعيل فى قصر أمير جان بتركيا فى عام ١٨٧٢ وأظهر له مودته وحسن رعايته واعترف له بالضرر الذى لحق به وبابنه فيما يمتلكانه بمصر . وكان من نتيجة هذه المقابلة أن سمح لابنه بالعودة إلى مصر . أما عارف باشا فالمعروف عنه أنه لم يعد إلى مصر أبداً . وكذلك كتب على هامش كتاب المحبى الذى عنى بمطالعته أنه تولى فى فترة من الزمن منصب ولاية كنفرى إلى أن تخلى عنه فى عام ١٨٧٥ .

وبعد ذلك التاريخ لا يعلم شىء عن بقية حياة عارف باشا ولم يصف صاحب السجل العثمانى كذلك شيئاً .

وفى هذا المجال ينبغى ألا ننسى أن هذا العلامة كان يحسن اللغة العربية ويروون من نظمه فيها بيتين يفتخر بهما ، قال :

ألم تعلم بأن سماء فكرى تلوح بأفقها شمس المعارف
تفرّس والدى فىّ المزايا فيوم ولدت لقبنى بعارف

وكان عارف باشا زوج آمنة هانم بنت خليل القواله لى وهو ابن بلتيس هانم وهى أخت الحاج مصطفى أغا زوج أمينة هانم أخت محمد على الكبير .

وإلى جانب موسوعة « عبر البشر » أسس عارف جميعة المعارف وهى فاتحة جمعيات النشر فى مصر ، لتنهض بنشر الثقافة بوساطة التأليف والطباعة والنشر ، وتمّ تأسيسها فى عام ١٨٦٨ — ٦٩ ، وكان هدفها طبع الكتب التاريخية والعلمية بعد تهذيبها وتلخيص بعضها ، وتولى محمد عارف أعمال وكيلها ، وإن كان فى الواقع رئيسها الفعلى[١] .

تألفت الجمعية برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام قيمة السهم ثلاثون قرشاً ، واقتنت مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها ، عدا ما كانت تطبعه فى دار الطباعة الأميرية ببولاق والمطبعة الوهبية .

وقد لقيت الجمعية إقبالا عظيما وتعضيداً كبيراً من الطبقات المتنورة فى المجتمع ، إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ / ٧٠ م) ٦٦٠ عضواً وردت أسماؤهم فى ذيل كتاب « الفتح الذهبى » نذكر من بينهم :

إبراهيم بك حليم ، إبراهيم بك أدهم ، السيد إبراهيم جميعى ، السيد إبراهيم بك المويلحى ، إتربى بك أبو العز ، أحمد طلعت باشا ، أحمد رشيد باشا ،

(١) نشرت لائحة الجمعية فى الوقائع المصرية — عدد ٣٠١ بتاريخ ٧ يونيو سنة ١٨٦٩

أحمد خيرى بك ، أحمد عبيد بك ، الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى ، الشيخ أحمد البتنونى ، الشيخ أحمد فارس الشدياق ، الفريق جعفر مظهر باشا ، الفريق جعفر صادق باشا ، الشيخ حسونة النواوى ، حسين فخرى باشا ، حسين شيرين باشا ، الفريق راشد حسنى باشا ، خليل باشا يكن ، الشيخ عبد الرحمن الإبيارى ، الشيخ بدراوى عاشور ، مصطفى رياض باشا ، أميرالألاى حماد بك عبدالعاطى ، محمد مظهر باشا وغيرهم من نبهاء البلاد[١] .

وقد تيسر للجمعية فى فترة قصيرة أن تنشر عشرات المؤلفات النادرة ومعظمها لم يكن قد طبع من قبل . وقد ورد ذكر تلك المطبوعات فى كتاب تاريخ ابن الوردى (الجزء ٢ ص ٣٦٥ و ٦٦) .

وفيما يلى أهم تلك الآثار :

حاشية العناية على تفسير البيضاوى .

المزهر فى اللغة للسيوطى .

المثل السائر لابن الأثير .

الصحاح فى اللغة للجوهرى مع الوشاح .

كشف الظنون .

شفاء الغليل للشهاب الخفاجى .

سفينة المولوية لثاقب دره .

شرح رسالة ابن زيدون .

تزيين الأسواق فى مصارع العشاق .

شرح العزيزى على الجامع الصغير .

متن البخارى بالهوامش .

السيرة الحلبية .

شرح القسطلانى على البخارى .

نزهة المجالس .

سعود المطالع للشيخ عبد الهادى .

العقد الفريد للملك السعيد .

إحياء العلوم للغزالى .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى – عصر إسماعيل ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

تذكرة داود .
الأنس الجليل فى القدس والخليل .
الحواشى المدنية فى فقه الشافعى .
المختصر فى أخبار البشر .
محاضرات الراغب الاصفهانى .
رسائل بديع الزمان الهمذانى .
شرح التحفة لابن حجر الهيثمى على المنهاج .
حاشية البرزنجى للشيخ عليش .
شرح منظومة قواعد الاعراب .
شرح منظومة فى الصرف .
تعليم المتعلم .
تاريخ مصر للشيخ الشرقاوى .
القصائد الارتقيات للصفى الحلبى .
مراقى الفلاح .
المنطق المفهوم .
حاشية البردة للشيخ الباجورى .
بداية الهداية للغزالى .
الفوائد والصلات .
تعريفات السيد الشريف الجرجانى .
تاريخ الخميس .
شرح الجلالى المحلى على المنهاج .
مجموعة فى المزدوجات .
طراز المجالس للشهاب الخفاجى .
خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .
السيرة النبوية للعلامة الشيخ أحمد دحلان مفتى الشافعية بمكة .
المطالع النصرية للعلامة الشيخ نصر .
بدايع البداية .
حاشية رسالة الصبان البيانية للعلامة الشيخ مخلوف قاضى المدينة .

ديوان ابن المعتز .
عنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبي الحسن .
تاج العروس من شرح جواهر القاموس للسيد مرتضى الزبيدى .
أسد الغابة فى معرفة الصحابة للعلامة ابن الأثير .
تاريخ اليمنى مسجع فى غاية من البلاغة وله جملة شروح .
كتاب ألف باء .
تاريخ ابن الوردى .
تاريخ الفتح الوهبى فى شرح العتبى .
شرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبى العلاء المعرى) .
شرح ديوان ابن خفاجة .
البيان والتبيين للجاحظ .
شرح الشيخ خالد على البردة .

تحدثنا عما وصل إليه بحثنا عن «محمد عارف باشا» وعن «جمعية نشر المعارف» والآن نبدأ الكلام عن كتاب « عبر البشر » فنقول :

يتسنى تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب فيما بين عامى ١٨٧٣ و ١٨٧٥ . نستدل على ذلك من الحديث الذى سجله المؤلف فى صفحة ٣٧ من كتابه ، وقد دار بينه وبين رياض باشا فى أميرجان عام ١٨٧٣ حديث بشأن عالم اسمه الشيخ إبراهيم السقا ، وتقابلنا فى هامش صفحة ٧ من الكتاب (النسخة التى وجدت عند الأستاذ جودت بيسين من أساتذة جامعة استانبول) عبارة خاصة بحياة محمد عارف جاء فيها تاريخ ٤ رمضان ١٢٩٢ (٣ أكتوبر ١٨٧٥) وهذا التاريخ لا شك أنه بعد تأليف الكتاب .

وعلى ذلك يكون تأليف « عبر البشر » فيما بين عامى ١٨٧٣ و ١٨٧٥ ، ومن المحتمل جداً أن تكون سنة ١٨٧٤ هى السنة التى ألف فيها الكتاب .

ومن الصعوبة بمكان الاهتداء إلى عدد الأجزاء التى نشرت من الكتاب — أو بعبارة أصح من دائرة المعارف — أكانت جزئين أم أكثر . وقد قيل إنه فى إحدى المكتبات الخاصة بتركيا جزءان من الكتاب ولكن لم يثبت ذلك ، وإذا كان قد نشر جزء آخر من الكتاب فمن المحتمل جداً أن لا يكون الكتاب قد تمّ فى جميع أجزائه ، وقد وقفنا على هذا مما كتبه المؤلف بخط يده فى صفحة

٦٣ فى نسخة كتابه ، وهذا هو نص ما دوّنه :

« لقد تركت فى مكتبتنا بمصر الكثير من مخطوطات الأعمال التى كنت قد بدأت العمل فيها . وفى شهر جمادى الآخر عام ١٢٩٠ هـ (أغسطس ١٨٧٣) ، لما قابلنا الخديو فى أميرجان وعرفناه بهذا أمر إبراهيم بك أن يسوى هذا الموضوع . وبفضل الله نأمل أن نكمل كتابة هذه المخطوطات وأن تعنى الجمعية باستئناف نشاطها » .

فإذا كان هذا الأمل بدأ يتحقق ، كما رغب عارف باشا إلى عام ١٨٧٥ ، فقد كان من المؤكد أن يثبت المؤلف على هامش كتابه كما فعل عند ما دوّن هوامش كثيرة كالتى ذكرناها .

ومع هذا ننتقل إلى محتويات الجزء الأول من الكتاب لنتناوله بالتحليل وعلى الأخص ما يتعلق بحياة محمد على باشا ، فتقابلنا حقائق ضافية عن نشأته وحياته لم يسبق أن وصلت إلينا من مصادر أخرى ، ذلك لأن المؤلف كان على علم بأسرة هذا العاهل وأصلها وأفرادها القدامى .

بل يطيب لنا أن نعترف بلا مغالاة بأن هذا المؤلف عبارة عن موسوعة لمصر فى أوائل القرن التاسع عشر . استهله بمقدمة موجزة عن تاريخ مصر إلى اعتلاء الأسرة المحمدية العلوية منصة الحكم . ثم يتبع الكتاب الترتيب الأبجدى مبتدئاً باسم أمينة هانم إحدى زوجات محمد على وأمينة هانم شقيقته التى تزوجت من الحاج مصطفى أغا . ونعلم أيضاً أنه كان للحاج المذكور شقيقة اسمها باتيشة هانم كانت والدة خليل أفندى الوالى تزوجت ابنته أمينة هانم من محمد عارف مؤلف الموسوعة .

ومن هنا نقف على صلة القرابة والنسب بين محمد على وعارف باشا — تلك الصلة الوثيقة التى لا يكف عن ترديدها رغبة فى توكيدها !

ولا يتحرج الكاتب من اقتفاء أثر الأصول والفروع وتبيان الروابط والصلات بخبرة ومعرفة ملحوظتين . . وإذا شئتم الدليل فعودوا معنا إلى صفحة ٣٠ لنقرأ ما يلى :

إبراهيم (والد) محمد على وكان اسم جده الأكبر عثمان « إبراهيم » ومعنى هذا وجود « إبراهيمين » .

وعن أصل محمد على يقول إن والد والد جده جاء من قونية إلى قولة وأكد

ذلك إبراهيم باشا فى حديث له دار بينه وبين محمد عارف فى كفر البطيخ .

وعن أمينة هانم زوجة محمد على يذكر المؤلف أنها من قرية نصرتلى من إقليم دراما ، عقد عليها وهى فى السادسة عشرة من عمرها من على بك مدرسها ، ولماقتل هذا فى إحدى المعارك رأى رشيد بك شقيق خليل أحمد أغا ناظر دراما أن تتزوج من محمد على ، فتم الزواج وكانت ثمرته الأولى بكر يته توحيدة هانم .

وعلى هذا الغرار تقابلنا فى هذه الموسوعة التفاصيل الدقيقة عن أفراد أسرة محمد على .

قلنا إن المؤلف اتبع الترتيب الأبجدى فى كتابه ، وسنذكر بعض الأشخاص الذين تأتى ذكرهم فى الجزء الأول .

آغو أغا (جد خليل شريف باشا وزير خارجية تركيا) — آمنة هانم (ثلاثة بهذا الاسم) — إبراهيم أغا (كثيرون) — إبراهيم السقا أحد مشايخ الأزهر العلماء — إبراهيم أدهم — إبراهيم الألفى — إبراهيم جاويش — إبراهيم بك — إبراهيم توفيق باشا — أحمد غريب باشا — أحمد عصمت باشا — أحمد بك — الدرمللى أحمد باشا — جركس أحمد بك — أحمدطوسون باشا — كرد أحمد أغا — أحمد باشا جوقدار وإسماعيل . . . إلخ .

وتقابلنا فى خلال الكلام عن مشاهير الرجال أسماء أخرى لمظلوم باشا وطوبوزوغلو ، ونوبار باشا ، وسليم باشا ، وكلوت بك وما إليها .

وفى سنة ١٩٣٤ وصل إلى مسامع المغفور له الأمير الجليل عمر طوسون أمر كتاب « عبر البشر » ، فكتب سموه إلى أسعد بك فؤاد طوجاى فى بيبك باستانبول ليبحث له عنه .

ولم يمض طويل حتى وجد أسعد بك جزءين من الكتاب تنقصهما بضع صفحات . بل قد لوحظ أن الجزء الأول ، الذى عثر عليه لدى الأستاذ جودت بيسين أحد أساتذة جامعة استانبول ، تقف صفحاته عند صفحة ٢٠٨ . فأين ذهبت بقية صفحات الكتاب المطبوع ؟ .

من المحتمل أن المؤلف ، بعد طبعه الكتاب ، رأى أن هذا الجزء احتوت صفحاته الأخيرة على ما لا يصح نشره ولا سيما إذا ذهبت نسخه إلى مصر واطلع الخديو إسماعيل عليها ، فعمل على نزعها ، ولم يوزع نسخه على المكتبات للبيع

بل احتفظ بها لنفسه ، كما أهدى قلة منها لبعض معارفه الاخصاء .

ولذلك نذر جداً وجود الكتاب فى المكتبات التركية العامة أو الخاصة أو لدى العلماء المعمرين كما ذكر ذلك أسعد بك طوجاى فى خطابه للأمير عمر طوسون .

ونسخة الجزء الأول التى احتفظ بها الأستاذ جودت تحمل ملاحظات شتى للمؤلف مكتوبة بخط يده فى هوامش النسخة .

وقد عثر أسعد بك على نسخة أخرى من الكتاب وفى جزئين ناقصين كذلك فى مكتبة تملكها أسرة من سلالة مولانا جلال الدين الرونى مؤسس الطريقة المولوية المعروفة . مثل هذه النسخة هى التى نسخها أسعد بك وأرسلها إلى الأمير الراحل .

والمعروف عن عارف باشا أنه طبع كتاباً عن الطريقة الصوفية اسمه « سفينة مولويان » .

وقد علم أسعد بك من محمود كمال بك بن المرحوم أمين باشا الذى كان مهرداراً ليوسف كامل باشا (وقد كان هذا زوج زينب هانم بنت محمد على الكبير) أنه يملك نسخة من المؤلف المذكور .

هذا وتقف صفحات الجزء الثانى من كتاب العبر عند صفحة ١٦٠ .

أما أسلوب عارف باشا فواضح للغاية فى الكتاب وإن كان يحتوى على عدة من أخطاء مطبعية لا شأن له بها . . .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أسعد بك اقترح على الأمير الراحل فى الخطاب الذى وجهه إليه فكرة ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية لفائدة المؤرخين ومحبى المطالعة وذكر اسم شيخ الإسلام مصطفى صبرى افندى ليقوم بتعريبه إذا شاء الأمير . إلا أن الأمير بدأ بترجمته إلى الفرنسية أولا ولم يطل الله عمره لينهض بالترجمة العربية .

ولما علم الملك السابق بوجود هذا الكتاب عند الأمير طوسون أمر بترجمته إلى اللغة العربية ، فترجمه ترجمة سريعة الأستاذ محمود نافعى بمحفوظات قصر عابدين ، وأهدى إحدى نسخها المترجمة إلى نجلى الأمير عمر طوسون . كما أمر بإهداء نسخة أخرى إلى دار الكتب المصرية .

والكتاب فى جزئيه يحملان رقمى ٩٣٩١ و ٩٣٩٢ (خاص) و ١٥٣ — ١٩٤٥ فى دار الكتب وهما مكتوبان على الآلة الكاتبة .

عبد الرحمن زكى

فى أيام الإنكشارية

اسكندر باليس — هتشنسون، لندن عام ١٩٥١

In the Days of the Janissaries ALEXANDER PALLIS — Hutchinson's.

يصف هذا الكتاب الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السابع عشر، فى الوقت الذى كانت فيه فرقة الانكشارية تضطلع بأهم أدوار مقومات السلطنة.

اعتمد المؤلف فى مادة كتابه على ذلك السفر المعروف «سياحة نامه» للرحالة التركى أوليا شلبى (١٦١١ — ١٦٨٠) — وهو الكتاب التركى الضخم الذى يعاد نشره باللغة التركية طبعة علمية ممتازة.

ويتعين علينا، قبيل التحدث عن «فى أيام الانكشارية» الذى نحن بصدده، أن نلم بالمرجع الرئيسى «سياحة نامة» لأنه بمثابة الأصل للفرع؛ ولعل أول شىء يجدر ذكره أنه يقع فى عشرة أجزاء كما يلى:

الجزء الأول — وصف استانبول وضواحيها فى عام ١٦٣١.

الجزء الثانى — الرحلة إلى بروسة وازميت (١٦٤٠) وأقاليم البحر الأسود من الأناضول والقوقاز والقرم (١٦٤٠ — ٤٤) وفتح كريت (١٦٤٥) — ثم وصف رحلة أوليا إلى أرضروم والقوقاز ثانية (١٦٤٦ — ٤٨).

والحديث عن هذين الجزئين يقتضينا أن ننوه بأن المستشرق النمسوى جوزيف فون هامر بورجستال، الخبير فى تاريخ آل عثمان، قد نقلهما إلى الانجليزية فى عام ١٨٣٤.

الجزء الثالث — رحلة الشام وكوردستان وأرمينية (١٦٥٠) ورميللى (تراقية ومقدونية وما إليها) وبلغاريا ودوبروجه وما إليها (١٦٥٣ — ٥٥).

الجزء الرابع — الرحلة إلى فارس والعراق (١٦٥٥ — ٥٦).

الجزء الخامس — الرحلة إلى مولدافيا وتجريدة بولندة وروسيا (١٦٥٧ — ٥٨) وتجريدة الأناضول والرحلة إلى الدردنيل وأدرنة (١٦٥٩) وتجريدة مولدافيا ودالماشيا (١٦٦٠).

الجزء السادس – تجريدة ترانسلفانيا والرحلة إلى ألبانيا (١٦٦١ – ٦٢) وتجريدة المجر والجبل الأسود والكروات (١٦٦٣ – ٦٤) .

الجزء السابع – رحلات النمسا والقرم والقوقاز – وكيبشاك واستراخان (١٦٦٤ – ٦٨) .

الجزء الثامن – تجريدة كريت وماينا فى المورة (١٦٦٩) ورحلات مقدونية ورومياليا (١٦٦٩) .

الجزء التاسع – الحج إلى مكة والمدينة .

الجزء العاشر – رحلة مصر والسودان .

ومما يذكر أنه قد نشرت مقتبسات اقتطفت من الأجزاء (الثالث – الرابع – الخامس – السادس) دون أن ينشر مما تبقى شىء بعد .

نعود إلى كتابنا موضع التعليق لنقول إن الشىء الذى أقدم عليه مستر باليس – اليوم – هو هضمه لمحتويات أجزاء المرجع المستفيض واختياره لأهم ما يرغب القارئ الغربى معرفته من عادات وطقوس وتقاليد وبعبارة مختصرة : وصف المجتمع العثمانى فى القرن السابع عشر .

وقد قسّم مستر باليس ، وهو يونانى النشأة إنجليزى الجنسية يعرف التركية ، مؤلفه إلى قسمين ، تناول فى القسم الأول الكلام عن فرقة الانكشارية ومنشأها وتاريخها ، منذ عام ١٣٢٦ إلى أن أبادها السلطان محمود الثانى فى عام ١٨٢٦ . وغنى عن التعريف أن كلمة انكشارية معناها « الجنود الجدد » (يني شيرى) ، وهو تحريف للاصطلاح الفارسى (جان نصار)، أى الذين يضحون بحياتهم .

ويقوم الجزء الثانى من القسم الآنف على الحديث عن المؤلف أوليا شلبى وعصره .

أما القسم الثانى من الكتاب فينطوى على تسعة فصول موزعة على الموضوعات الآتية :

استانبول وأحياؤها وضواحيها – السراى – طوائف الحرف (مقالان) – الشيوخ والدراويش – الموسيقى والشعر والفنون – الألعاب الرياضية – الألعاب المسلية الصغيرة – أصناف المآكل والمطاعم فى استانبول .

ومن ذلك العرض الموجز أو الملخص نرى أن مستر باليس قد اقتبس

بحق أهم ما يرغب الوقوف عليه من وصف المجتمع العثمانى وأحواله ، فجاء عمله كلوحة بديعة من الفسيفساء ، وإن كانت غير منتظمة فى اللون والتركيب ، ثم أضاف إلى الكتاب عدة لوحات لطيفة توضح حياة البلاد والمجتمع أخذها عن أهم رسوم الكتب التركية .

وعلى هذا يصح أن نعتبر الكتاب « مختارات من سياحة نامه » وليس ملخصا وافياً له فى كافة أجزائه .

* * *

استوعب المؤلف وصف استانبول وأحيائها كما كانت عليه فى زمان أوليا وضواحيها (يدى كولى وأيوب وكياجتشانيه وخاصكوى والترسانة وقاسم باشا وما إليها) وذكر أهم مبانيها ومساجدها ووصف عمارتها فى أسلوب سهل أخاذ .

وأتى على ذكر الطوائف الدينية وطقوسها وملابس رجالها وأعيادها فى عصره — ورجال الدين إذ ذاك يتمتعون بالسلطة الأولى وبالنفوذ الكامل فى البلاط والمجتمع — ثم وصف تكايا الدراويش وخانقاتهم وطرق معيشتهم .

ومن أطرف أقسام الكتاب كلامه عن الشعر والموسيقى والفنون ، وجاءت مقتبساته عن أوليا فى محلها ، وأبان لنا تلك المكانة التى كان يتمتع بها أعلام الموسيقى والفنون والشعر ، ورجال العمارة الذين خلفوا تراثا تشهد به المدن العثمانية فى أوربا وآسيا .

والحق أن مستر باليس تهيأ له كل النجاح فى فصوله الأخيرة من كتابه : فقد نقل إلى قراء اللغة الانجليزية العاديين أهم ما كانوا يجهلونه إلى وقت قريب جداً عن الثقافة العثمانية الإسلامية ، فالكتاب يستطيع أن يقرأه القارئ العادى لطرافته وسهولة أسلوبه ، ولا نقول سطحيته ، ذلك لأن المؤلف الأصلى كان عثمانياً قحاً تناول ما سطره قلمه عن علم واف ومعرفة عميقة .

ولعل أشهر ما تضمنه الكتاب فصله الختامى ، وهو مآكل استانبول ومطاعمها وما احتوت عليه من مصنفات الحلوى والشراب ، وذكر ما اختص به كل حى من أحياء العاصمة من الأطباق الخاصة به .

وإلى جانب تلك المعلومات المستفيضة بالكتاب ، فقد نقل إلينا مستر باليس الشىء الكثير من حياة أوليا شلبى (ص ١٠٨ — ١١٦) التى كنا نجهلها وصلته بالسلطان مراد الرابع الذى قربه منه وخلع عليه النعم والهدايا ورعاه بتشجعيه .

ولا يفوت القارئ أن اسم أوليا جلبى (الولى الفاضل) الحقيقى محمد ظلى أفندى وقد ولد فى سنة ١٠٢٠ وتوفى فى عام ١٠٩٠ . حدثنا الأستاذ وصفى ذكريا[1] عنه ، قال :

إنه لم يوفق فى صباه فى تلقى العلوم وأن جمال صوته ساقه للولع بفنون الأدب والموسيقى إلى أن كان ذات يوم فى رمضان عام ١٠٤٥ يتلو القرآن فى جامع أياصوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه إلى قصره وجعله من ندمائه . إلا أن تلك الأبهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبى فى القصر كانتا محوطتين بضروب التقييد، فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا مع خفته وظرفه وحبه الحرية والانطلاق وشغفه بالسفر ، فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول فى الأمصار ، تارة منفرداً وتارة مع كبار الوزراء والقادة ولا سيما مع خاله ملك أحمد أحد صدور ذاك العهد العظام ، ورافق الجيوش التى ساقتها الدولة العثمانية إذ ذاك فى الشرق والروم ايلى ووصل إلى كريت ، وجال أيضاً فى أجزاء بعض إيران والقفقاس وجنوبى روسية وهنجاريا والنمسا وألمانيا وهولندة .

وندهش كيف أن المجبى صاحب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » ، وقد ترجم لكثير من فضلاء الترك وأعيانهم فى ذلك العهد ، لم يذكر اسم أوليا جلبى على الرغم من أن هذا جاء الشام وساح فيها ومكث فى دمشق مدة ، ولم يترجم أيضاً لمرتضى باشا الذى جاء الجلبى فى حاشيته وظل واليا فى دمشق نحو سنة .

وأخيراً نأمل — بعد هذا كله — أن تنهض إحدى الهيئات فى مصر بنقل القسم الخاص برحلة أوليا فى مصر والسودان إلى العربية لنقف على أحوال بلادنا فى القرن السابع عشر بقلم رحالة تركى . وقيمة هذا النقل أو النشر على جانب كبير من الأهمية، إذا تبينا قلة من كتبوا عن مصر والسودان فى خلال تلك الفترة من الكتاب المسلمين الأتراك .

عبد الرحمن زكى

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٢ — ج ٣ و ٤ ص ٢١٦ وقد نشر فى عدة مقالات مقتبسات عن رحلة أوليا شلبى فى البلدان العربية .